رسالة الترجمة رسالة الكتابة

تيسير شيخ الأرض(*)

مقدمة ـ ما الترجمة؟

لم الترجمة؟ يبدو هذا السؤال غريباً بالنسبة إلى الكثيرين. فنحن نتساءل عن فعل يقوم به الانسان كل يوم؛ وقامت به الانسانية منذ أقدم الحضارات. ألم يترجم السريان الكثير من آثار اليونان؟ والعرب في إبان قيام دولهم في العصر الوسيط ألم يترجموا الكثير من آثار اليونان والفرس والهنود؟ والأمم الأوروبية في عصر الاحياء ألم يترجموا الكتب العربية، سواء ما كان منها عربياً في تأليفه، وما كان يونانياً في أصله؟ وهم في عصورهم الحديثة ألا يترجم بعضهم آثار بعض في العلم والأدب والفكر والفلسفة؟ هل من كتاب له أهميته يصدر في الفرنسية أو الانكليزية أو الألمانية لا يترجم إلى اللغات الأوروبية الأخرى غير التي صدر فيها، في خلال عام أو عامين؟ والعرب المعاصرون ألم يبدأوا الترجمة منذ يقظتهم الحديثة حتى أيامنا هذه؟ كل هذا ألا يجعل من سؤالنا الذي طرحناه شيئاً نافلاً لا حاجة إليه؟ قد يبدو الأمر كذلك! لكن، هل يكفي في الأفعال الانسانية ـ والترجمة فعل انساني ـ القيام بها، حتى يكون هذا القيام مسوغاً لها؟ إننا لا نعتقد ذلك! فنحن نرى كل يوم افعالاً كثيرة يقوم بها الناس، ولا نجد مسوغاً لها مع ذلك! وهذا يعني، ان الواقع في الأمور الانسانية لا يكفي ـ بما هو واقع ـ لتسويغ وقوعه؛ ولا بد من شيء ينضاف إليه، ليجعله مسوغاً على هذا النحو أو ذاك! فهل من مسوغ للترجمة؟

الحقيقة، ان الترجمة فعل إنساني؛ وهي ككل فعل إنساني ترتبط بالغايات الانسانية؛ والغايات الانسانية تتعلق دائماً بالحرية الانسانية التي تنصبها أمامها غايات؛ والحرية تضفي عليها القيمة الانسانية حينما تنصبها أمامها. وهذا لا يقتصر على الغايات وحدها؛ بل يتعداها إلى الوسائل التي تحققها. ومن هنا كانت الوسائل ـ شأنها شأن الغايات ـ مرتبطة بالقيمة والحرية في وقت واحد معاً. ولكن القيمة هنا ليست قيمة شخصية أو ذاتية؛ بل قيمة إنسانية عامة. وإذا

(*) كاتب وباحث ـ الجمهورية العربية السورية ـ دمشق.

كانت شخصية أو ذاتية، أدت إلى أن تتصارع مع قيم شخصية أو ذاتية أخرى، وأدى الصراع إلى تراجعها بما هي شخصية أو ذاتية، وحلول القيمة الانسانية العامة محلها. وفي ضوء ذلك، نعود فنتساءل: لم الترجمة؟

ولكن هذا السؤال يتناول الترجمة بما هي فعل عام؛ ولا يتناولها بما هي أفعال متخصصة في مجالات مختلفة. وهذا يجعلنا نخصص سؤالنا، فنقول: لماذا نترجم الآثار الأدبية؟ ولماذا نترجم الكتب العلمية؟ ولماذا ننقل الأعمال الفكرية من لغة إلى لغة؟ ولماذا نقوم بذلك أيضاً بالنسبة إلى النتاج الفلسفي؟ إلخ... أسئلة كثيرة يمكن ان تنضوي تحت السؤال العام الذي طرحناه. وعندئذٍ، يكف التسويغ العام عن أن يكون تسويغاً كافياً لهذا الفعل الخاص أو ذاك من أفعال الترجمة؛ ولا بد من تسويغ التخصيص ذاته!

ولكننا لا نستطيع تسويغ فعل الترجمة في عمومه وخصوصه، ما لم نفهمه هو ذاته حق فهمه. فما الترجمة؟ من الملاحظ أن فعل الترجمة مرتبط بفعل سابق عليه، هو القول، سواء أكان شفهياً أم كتابياً. ولكن القول الشفهي لا يهمنا بقدر القول الكتابي؛ ولا سيما في مقالنا هذا. فالقول الشفهي قد تكون له أهمية صحافية، ولا سيما بعد انتشار وسائل الاعلام السمعية والبصرية. لكن هذه الوسائل تفقد قيمتها بمجرد إنقضاء المناسبة التي قيلت فيها الأقوال. وإذا كان لها من قيمة غير قيمة المناسبة، كان لا بد لها من أن تسجل وتتحول إلى قول مكتوب. وهذا ينتهي إلى أن الترجمة ـ بالمعنى الجدي للكلمة ـ تفترض الكتابة، وأنه لا يمكننا فهم فعل الترجمة، من دون فهم فعل الكتابة!

وإذن، فهناك آثار مكتوبة سابقة على فعل الترجمة؛ ونحن نحاول أن ننقلها بأمانة أو بتصرف، من نصها الأصلي إلى نص مترجم. ولكن هذا النقل يفترض لغتين إحداهما اللغة المنقول منها، وثانيتهما اللغة المنقول إليها. بيد أن اللغة ليست غاية هنا، بل وسيلة: إنها أداة توصيل؛ ففي اللغة الاصلية كانت أداة توصيل بين الكاتب وقارىء هذه اللغة؛ وفي اللغة المنقول إليها، أصبحت أداة توصيل بين المترجم وقارىء اللغة المترجم إليها. بيد أن الوسيلة محاولة لتحقيق غاية، والغاية هي توصيل المضمون الأدبي أو العلمي أو الفكري أو الفلسفي الذي تعبر عنه اللغة، سواء في النص الأصلي أو النص المترجم.

ولكن الترجمة ـ من حيث هي فعل له غايته ـ لا يمكن أن تكون عشوائية. ومن هنا كان لا بد لفعل الترجمة، من أن يكون مسبوقاً بفعلي القراءة والتقويم، فضلاً عن فعل الكتابة: فالكاتب انتهى من كتابة أثره؛ ونحن لا بد لنا قبل ترجمته، من قراءته وتعرفه، قبل التفكير في ترجمته، سواء أكان القارىء هو المترجم ذاته، أو مؤسسة النشر التي تحبذ نشره. ولكننا لا نترجم أي كتاب نقرؤه؛ بل الكتاب الذي انتهينا من قراءته، وقدرنا نفعه بالاضافة إلى قراء اللغة التي نريد أن ننقله إليها. وهذا يعني، أنه لا بد للقراءة من أن تنتهي إلى تقويمه تقويماً يفضي بمقومه إلى الاقتناع بضرورة ترجمته.

وهكذا نجد أن الترجمة ترتبط بالقيمة؛ وأنه لا يمكننا أن نتحدث عنها، ما لم ننظر إليها من وجهة نظر القيمة. ولكن، أية قيمة نعني؟ إننا نعني بها قيمتين هنا: قيمة الأثر بما هو أثر؛ وقيمته بما هو ذو مضمون إنساني. أما من الناحية الاولى، فأن قيمة الأثر المكتوب تنتقل إلى قيمة ترجمته؛ وقيمة ترجمته رهن بفهمه وحسن نقله. لكن هذا يختلف باختلاف المضمون؛ وينقلنا من القيمة بعامة إلى قيم خاصة تختلف باختلاف الكتب. ولهذا لا بد من التمييز بين الكتب الأدبية والكتب العلمية والكتب الفكرية

والكتب الفلسفية إلخ . . . في تقويم الآثار المكتوبة، وتقويم فهمها، وتقويم نقلها. وههنا تدخل الناحية الانسانية بما هي قيمة؛ وبقدر صدور الآثار المكتوبة عن النزعة الانسانية من جهة، وارتدادها إليها من جهة أخرى، تكون قيمة هذه الآثار؛ وهي القيمة التي تطغى على القيمة الأولى وتلحقها بها.

من هذا المنظور، سنحاول رؤية قيمة الأدب وترجمته، وقيمة العلم وترجمته، وقيمة الفكر وترجمته، وقيمة الفلسفة وترجمتها. ونعتقد أن تحديد هذا وذاك، من شأنه أن ينتهي بنا إلى خاتمة نلخص فيها قيمة الترجمة بارتباطها بقيمة الكتابة، من حيث هي فعل إنساني مرتبط بالقيمة الانسانية من ناحية، وباللغة التي هي أداة توصيل من ناحية أخرى. ولكننا، سنبدأ بتحديد قيمة الكتابة عموماً.

1 ـ لم الكتابة؟ لم الترجمة؟

إذا شئنا أن نعرف قيمة الترجمة، كان لا بد لنا من الفحص عن قيمة الكتابة؛ إذ إن ذلك الفعل ملحق بهذا الفعل. وبهذا الصدد سننظر إلى موضوعنا من ثلاث زوايا، هي: شروط الكتابة؛ رسالة الكاتب؛ علاقة الكاتب بالقارىء.

(1) شروط الكتابة: لقد كانت الكتابة ذات رسالة في كثير من الأحيان. ومن هنا كانت ضرورتها. والحقيقة، فهي تتيح للفكر ـ شأنها شأن الكلام وأحسن من الكلام ـ بأن يتحقق وهو يعبر عن ذاته. فالكلام لا يعبر غالباً عن الاتصال بالآخر إلا آنياً وفي المناسبات. أما الكتابة فتفترض دائماً حديثاً طويلاً مع الذات؛ وهي تطمح إلى أن تصير حديثاً مع الناس جميعاً. إنه ينبغي أن يكون فيها ما يكفي من الثراء والعمق، لكي تبقى صادقة ما وراء الظروف التي نشأت فيها. وبغير ذلك، فهي لا ترضى إلا اهتماماً فضولياً. إنه ينبغي للكاتب ان يسلينا وهو ينتقل بنا في أمكنة وأزمنة نحن غرباء فيها، ونشيح بأفكارنا عنها، لمجرد إنتهاء الكتابة. إنه ينبغي له أن يكون قادراً في كل لحظة على إثارة جوانب طبيعتنا الأكثر جوهرية، وأن يكشف لنا عن عناصر في نفوسنا نحملها فيها باستمرار[1]. ولكن هذا الحديث مع الذات، الذي هو حديث مع الناس جميعاً، والذي يكشف عن طبيعتنا الأكثر جوهرية، يستحق ـ بما هو حديث مع الناس جميعاً ـ أن ينقل من لغة إلى لغة؛ ما دام الانسان هو الانسان في كل زمان ومكان؛ وما دامت تجربة المؤلف الذي يكتب بلغة معينة، لا تختلف في جوهرها عن تجربة القارىء الذي يقرأ كتابه مترجماً إلى لغة أخرى.

وهذا يعني، ان ما يجعل كتاباً من الكتب جديراً بالترجمة، هو الجانب المشترك بين بني البشر، لا الأمور العارضة العابرة التي تختلف باختلاف أحدنا عن الآخر. فقد يعتقد بعضهم، ان خاصية الكتابة هي تخليد بعض الأفكار العابرة التي تختفي على نحو آخر، من دون أن تترك وراءها أثراً . . . الواقع، أنه لا ينبغي لنا إطلاقاً، أن نسعى إلى أن نقبض في الماضي على ما زال منه؛ والذي لم يكن في الوجود إلا مجرد شيء عابر؛ وإنما إلى التماس مع الواقع الذي لا يفنى، والذي اتاح لنا أن نحصل على لحظة من اللحظات، والذي يكون أكثره إثارة كلما ازداد ما يبدده الزمان بسرعة[2].

والأثر الجدير بالقراءة والترجمة من لغة إلى أخرى، ليس هو الأثر الذي يعبر عن جوهر الانسان فقط، بل ذاك الذي يكشف لنا عن حقيقة العالم أيضاً. فالأثر لا يتحدد أبداً بالموضوع المرسوم أو المنحوت أو المسرود. فكما أن الأشياء لا تدرك إلا على قاع العالم، كذلك فالموضوعات التي يقدمها الفن تبدو على قاعه . . . فإذا قدم لنا الرسام حقلاً أو إناء أزهار، كانت لوحاته نوافذ مفتوحة على العالم كله. فهذا الطريق الأحمر

الذي يندس بين حقول القمح إنما نتبعه بعيداً أكثر بكثير مما رسمه فان غوغ، بين حقول قمح أخرى، وتحت غيوم أخرى، حتى نصل إلى نهر يصب في البحر؛ ونجد الأرض العميقة التي تمسك بوجود الحقول وتناهيها، لا إلى نهاية، وحتى الطرف الآخر من العالم، على نحو يتطلع فيه الفعل الخلاق، من خلال الموضوعات التي ينتجها أو يعيد إنتاجها، إلى تناول العالم تناولاً كلياً. ان كل لوحة، وكل كتاب، هو استعادة لكلية الوجود؛ فكل منهما يقدم هذه الكلية إلى حرية المشاهد. ذلك ان الهدف الأخير من الفن، هو بالتأكيد استعادة هذا العالم، بجعله يبدو كما هو؛ ولكن، كما لو كان يستمد ينبوعه من الحرية الانسانية[3].

وإذا شئنا أن نمضي أبعد، كان لا بد لنا من أن نتذكر، ان الكاتب ـ شأنه شأن الفنانين جميعاً ـ يتطلع إلى ان يقدم إلى قرائه عاطفة معينة. إن هذه العاطفة تدل حينما تبدو على أن الأثر قد تحقق. . . والواقع، ان هذا الفرح المرفوض بالنسبة إلى الخالق ـ من حيث هو خالق ـ ليس شيئاً آخر غير الشعور الجمالي الذي يشعر المشاهد به؛ أي الكاتب في الحالة التي تهمنا. . . إنه واحد أولاً، هو والاعتراف بغاية مفارقة ومطلقة، غاية توقف للحظة من اللحظات، الشلال النفعي من الغايات الوسائل والوسائل الغايات؛ أي الاعتراف بدعوة. وهذا يساوي بالذات الاعتراف بقيمة. ان الشعور الوضعي الذي أشعر به بهذه القيمة يرافقه بالضرورة شعور غير وضعي بحريتي؛ لأن الحرية تتجلى لذاتها بضرورة مفارقة. ان الاعتراف بالحرية فرح؛ ولكن هذه البنية من بنى الشعور غير الموضوعي يتضمن شعوراً آخر: فلأن القراءة هي خلق في الواقع، فان حريتي لا تبدو لذاتها وكأنها استقلال ذاتي فقط؛ بل وكأنها فعالية خلاقة؛ أي انها لا تكتفي بأن تصنع قانونها لذاتها؛ وإنما ان تدرك ذاتها مكونة لموضوعها أيضاً. . . ان هذه المتعة الوضعية ترافق الشعور غير الوضعي بالجوهرية، بالنسبة إلى موضوع أدرك على أنه جوهري. هذا الشعور شعور بالامان؛ وهو يطبع الانفعالات الجمالية الأقوى بطابع السكنية المطلقة. انه يرتد بأصله إلى إثبات التناسق الدقيق بين الذاتية والموضوعية. . . وعلى هذا النحو، يتأتى الفرح الجمالي في هذا المستوى، من الشعور الذي أشعر به باستعادة ما ليس ذاتي بامتياز، والدخول إليه؛ لأنني أحول المعطى إلى أمر، والواقع إلى قيمة: فالعالم هو مهمتي؛ أي أن العمل الجوهري الذي تقبلته بحريتي هو بالضبط ان استقدم إلى الوجود، بحركة غير مشروطة، الموضوع الوحيد المطلق، الذي هو العالم[4].

والحقيقة، أن عالم الحرية والقيمة عالم إنساني يشارك فيه البشر جميعاً في شتى بقاع العالم، وفي كل زمان. لهذا كان لا بد من نقله من مجتمع إلى مجتمع، ليطلع عليه هذا الفرد أو ذاك. وعلى هذا النحو، سواء أكان الكاتب؛ أعني الانسان الحر، كاتب مقالات أم ناقداً أم هجاء أم روائياً؛ وسواء أتكلم فقط على الأهواء الفردية، أم هاجم النظام الاجتماعي، فليس لديه وهو يتوجه إلى اناس أحرار، إلا موضوع واحد: الحرية[5] والقيمة. ولكن الحرية والقيمة اللتين تجعلان كاتباً جديراً بأن يقرأ، هما اللتان تجعلانه جديراً بالترجمة. فما من شيء عزيز على نفوس الناس، مثل الحرية؛ وما من شيء يتطلعون إليه ويوجه حريتهم غير القيمة؛ وما من كتاب يثير حبهم وإعجابهم، مثل كتاب حر يتوجه إلى قراء أحرار؛ أو كتاب يرسم للإنسان القيم التي توجه سلوكه.

(2) رسالة الكاتب: لكن حرية الكاتب المتوجهة إلى حرية القارىء في أي مكان من العالم، والتي ترسم أمامه عالماً من القيم الانسانية السامية، هي التي تستدعي الترجمة من لغة إلى لغة. ان ما يكتبه

هذا الكاتب لا يكون على جانب كبير من القيمة، ما لم يكن صادراً عن إنسان صادق له رسالة إنسانية موجهة إلى الناس جميعاً، في كل زمان ومكان؛ ينقل الأمور بأمانة، ويكشف عن جوانب من الواقع ظلت خفية على سواه. والحقيقة، ان الكاتب يأتي في صدقه وبحثه واكتشافه بحقيقة شخصيته أو واقعها؛ وهو واقع حافل بالمفاجآت، غير متوقع من الآخرين، ومنه هو ذاته؛ فهو كشف، وشأنه فيه شأن الفيلسوف أو العالم تماماً. هذا الواقع له كثير من الأهمية أو قليل منها. لكن، سواء أكانت أهميته كبيرة أم صغيرة، فهو يظل غير متوقع ومزعجاً. . . . ومع ذلك، وعلى الرغم من كل ذلك، فان الحضور الجديد والمربك يفرض نفسه. انه يجعل الناس يصغون إلى الكاتب ويهتمون به وبما يحمله إليهم. فقد يولونه اعتبارهم بعد ان سخروا منه وهزوا أكتافهم. إنهم يتحققون ان ما أثار سخريتهم كان حقيقة؛ ويدركون ان الكاتب يقارب الواقع من زاوية جديدة؛ وان الواقع قد تنامى، وأنه قد اغتنى. أما الفنان نفسه فيعتقد أنه اخترع. والواقع أنه لم يخترع، بل اكتشف. فالاختراع والاكتشاف يتوحدان. فما كان الكاتب يعتقد أنه يراه يصدر عن ذاته في ذاته، كان واقعاً موضوعياً، سيعترف به الآخرون على أنه كذلك، ولا يمكنهم رفضه إطلاقاً. وحينما يعترف الآخرون به أخيراً، يراودهم الانطباع بأنهم عرفوه من قبل؛ وبأنهم كانوا يعرفونه من قبل باستمرار؛ فتبدو لهم هذه الحقيقة بسيطة وطبيعية تماماً. ان الغريب يصبح عادياً، وما لا يمكن فهمه يصبح واضحاً، والمستحيل يصبح بديهياً؛ فلا يعود بامكان الناس إطلاقاً ان يستغنوا عن العالم المكتشف أو المخترع؛ أي العالم الذي اكتشفه الكاتب أو اخترعه، لقد تمثلوه واندمج في ذواتهم، وغالباً ما تبدو هذه الحقيقة الجديدة ما هي إياه: حقيقة نسوها؛ عالم خفي وجدوه من جديد[6]. وهذا ما يستدعي المشاركة في إحدى التجارب الانسانية، وتعميمها في الزمان والمكان؛ وبالتالي بالنقل من لغة إلى لغة؛ لكي تقدم لبني البشر غذاء فكرياً واحداً.

وإذن، فالكاتب له حياته، وهي ذات معنى؛ ومعناها ينحصر في رسالته التي يؤديها؛ وهي ترتبط بعصره من ناحية، وبالمستقبل الذي يتطلع إليه من ناحية أخرى، وهي رسالة لا يستطيع الهرب منها؛ لأنه لا يستطيع الهرب من كونه كاتباً. ونظراً لأنه لا يستطيع الهرب، ولا يملك وسيلة له؛ فلا بد له من أن يعانق عصره عناقاً شديداً؛ فعصره هو فرصته الوحيدة: لقد صنع عصره له؛ وهو صنع لعصره. وهذا يعني، إنه في موقف من عصره: فكل كلمة من كلماته تترك أصداءها فيه؛ وكل صمت أيضاً. ولذلك كان مستقبل عصره هو الذي ينبغي أن يكون موضوع عنايته: ان مستقبل محدد وهو يتميز منه بصعوبة؛ لأن العصر، شأنه شأن الانسان، مستقبل قبل كل شيء. ولكن حينما يشارك في تفرد عصره، إنما يتصل في نهاية الأمر بما هو أبدي؛ فمن مهمته ـ بما هو كاتب ـ أن يسهم في تلمح القيم الأبدية المتضمنة في هذه النزاعات الاجتماعية أو السياسية. ولكنه لا يفكر في البحث عنها في سماء المعقول: فليس لها من نفع إلا في غلافها الحالي[7].

وإذن، فالكاتب مرتبط بعصره وبمشكلاته المختلفة، سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية أم ثقافية إلخ. . . ولكن ارتباطه بعصره يعني ارتباطه بمعاصريه؛ ومعاصروه لا يرتبطون به إلا بطريق ما يكتبه. ولهذا كان معاصروه هم قراؤه سواء أقرأوه في لغته أم في أية لغة أخرى ترجم إليها. لهذا كانت الكتابة كشفاً للعالم واقتراحاً له، وكأنه مهمة ملقاة على عاتق القارىء. إنها اللجوء إلى شعور الآخر من أجل الحصول على اعترافه بنا على أننا جوهريون في كلية الوجود. إنها إرادة عيش هذه الجوهرية من اناس متواجدين معاً. ولكن ربما أن العالم الواقعي لا

ينكشف إلا للعمل، وبما أن المرء لا يمكنه أن يشعر بذاته فيه إلا بتجاوزه من أجل تغييره، فان عالم الروائي لا بد له من أن يفقد من كثافته، إذا لم يكتشفه في حركة ما، من أجل مفارقته. إنه غالباً ما لوحظ ذلك: فشيء ما، في قصة ما، لا يستمد كثافة وجوده من عدد الأوصاف التي تخصص له، وطولها؛ وإنما من تعقد إرتباطاته بالأشخاص المختلفين. وسيبدو أن الأمر سيكون أكثر واقعية، كلما كان في الأغلب معالجاً، مأخوذاً ومعاداً إلى وضعه. وبالاختصار، كلما تجاوزه الأشخاص نحو غاياتهم الخاصة. وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى العالم الروائي، أي بالنسبة إلى كلية الأشياء والناس: فلكي يقدم لنا كثافته القصوى، ينبغي للكشف الخلاق الذي يكتشفه القارىء به، أن يكون أيضاً إلتزاماً خيالياً في العمل. وبلغة أخرى، كلما كانت لدينا رغبة في تغييره، كان حياً. لقد أخطأت الواقعية في اعتقادها بأن الواقع يتكشف أمام التأمل، وإنه بالامكان نتيجة لذلك، صنع رسم غيرمتحيز له. كيف يمكن ذلك، ما دام الادراك ذاته متحيزاً، وما دامت التسمية هي وحدها تعديل سابق للموضوع؟ فكيف يستطيع الكاتب الذي يريد أن يكون جوهرياً بالنسبة إلى العالم، ان يريد ذلك بالنسبة إلى المظالم التي يحتويها؟ يجب عليه أن يكون بالنسبة إليها مع ذلك. ولكن، إذا رضي أن يكون خالقاً للمظالم، فهذا في حركة تتجاوزها نحو هدفها. أما بالنسبة إلى القارىء، فإذا أبدع عالماً ظالماً وأمسكه في الوجود، فإنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لكي يكون مسؤولاً عنه. فكل فن الكاتب ينحصر في إجباره على خلق ما يكشفه له؛ وبالتالي على المخاطرة. أن كلاً من الكاتب والقارىء يتحمل مسؤولية العالم؛ بالضبط لأن هذا العالم يمسكه الجهد الموحد لحريتيهما، ولأن الكاتب يحاول بواسطة القارىء أن يدمج هذا العالم في ما هو إنساني، فلا بد له من أن يبدو حقاً في ذاته، في طينته الأكثر صدقاً، وكأنه تتجاوزه من كل جانب، حرية اتخذت من الحرية الانسانية غاية لها؛ وهي التي تدعمه. وإذا هو لم يكن حقاً مدينة الغايات التي ينبغي له أن يكونها؛ فينبغي أن يكون مرحلة مؤدية إليها على الأقل. وبكلمة مختصرة، ينبغي أن يكون صيرورة؛ وأن ننظر إليه، ونقدمه دائماً، لا على انه كتلة ساحقة ينتج بثقلها علينا، بل من وجهة نظر تتجاوزه نحو مدينة الغايات هذه. ينبغي للأثر أن يكون متسامحاً، كائنة ما تكون الانسانية التي يصفها في خبثها ويأسها. . . ولكن هذه السماحة ينبغي أن تكون نسيج الكتاب ذاته، أي القماش الذي يصنع منه الأشخاص والأشياء: فمهما كان الموضوع، فثمت نوع من الخفة الجوهرية ينبغي أن تبدو في كل مكان، وأن تذكرنا بأن الأثر ليس معطى طبيعياً، وإنما ضرورة وهبة. وإذا أعطيت هذ العالم بمظالمه، فليس هذا في سبيل تأمل هذه المظالم ببرود؛ وإنما لكي أحييها بسخطي عليها، وأكشفها وأخلقها بطبيعتها بما هي مظالم؛ أي بما هي إساءات لا بد من إلغائها. وهكذا، لا ينكشف عالم الكاتب بكل عمقه، إلا عند تفحص القارىء له، والاعجاب به، أو السخط عليه. والحب السموح هو وعد بالامساك، والسخط السموح هو وعد بالتغيير، والاعجاب هو وعد بالمحاكاة. فعلى الرغم من أن الأدب شيء، والأخلاق شيء آخر، فإننا نتبين الأمر الأخلاقي في أعماق الأمر الجمالي.

وهكذا نجد أن حرية الكاتب تفترض حرية الآخرين، سواء أكانوا مواطنين أم غير مواطنين، فما من أحد يكتب للعبيد؛ وفن النثر مرتبط بالنظام الوحيد الذي يحتفظ فيه النثر بمعناه؛ أعني النظام الديموقراطي. وحينما يكون أحدهما مهدداً، يكون الآخر مهدداً أيضاً[8]. وهذا يقودنا إلى علاقة الكاتب بالقارىء.

(3) **علاقة الكاتب بالقارىء**: إذا كانت الكتابة رسالة، كان لا بد لنا من أن نتساءل عن الشخص الذي توجه إليه، أهو شخص بعينه أم أكثر من شخص؟ أهو مواطن الكاتب أم يتجاوزه إلى كل إنسان؟ أهو معاصر الكاتب أم يتطلع إلى خارج آفاق العصر؟

ولكن، ما دامت وسيلة الكاتب هي الكتابة، فإن وسيلة من تتوجه إليه لا بد لها من أن تكون القراءة. ومن هنا كانت العلاقة بين القارىء والكاتب علاقة قراءة وما تتضمنه القراءة من أفكار ومبادىء وقيم. والقارىء الذي يتوجه إليه الكاتب، يتجاوز في أكثر الأحيان الزمان والمكان؛ ولا سيما حينما يتخذ الكاتب من الكتابة رسالة إنسانية، وفي هذه الحال، لا بد للترجمة من أن تواكب الكتابة، لتكون إمتداداً لها في الزمان والمكان، بلغات مختلفة. غير أن تجاوز الزمان يعني التفكير في المستقبل؛ التفكير بمن يجيئون من بلد الكاتب ولغته، وبمن يجيئون من غير بلد الكاتب وغير لغته. وهذا يعني الترجمة؛ يعني نقل الأثر المكتوب من لغة إلى أخرى. وبذلك تصبح العلاقة بين الكاتب ومن يكتب لهم أوسع بكثير مما بدت لنا في الوهلة الأولى، وهذا ينتهي إلى أن الكاتب الحقيقي يكتب من أجل القارىء العالمي؛ وأن ما يتطلبه الكاتب يتوجه في الواقع، من حيث المبدأ، إلى كل الناس[9].

ولكن، ما نوع هذه العلاقة التي تقوم بين القارىء والكاتب في معناها الواسع الذي رأيناه؟ إنها علاقة إنسان حر بإنسان حر، من خلال القيم الانسانية السامية. ولهذا كان الكاتب يحرص دائماً على الحفاظ على حرية تفكيره، مستهدياً بالقيم المختلفة. وبهذا الصدد يقول أيونسكو، الكاتب المسرحي الفرنسي، ما يلي: «والحقيقة، فقد صارعت بخاصة من أجل المحافظة على حرية تفكيري؛ من أجل المحافظة على حريتي كاتباً[10]». وإذا سألنا أيونسكو: كيف يمكن للكاتب أن يحافظ على حريته؟ وجدنا أنه يكفي الكاتب أن يكون طبيعياً، حتى يكون حراً؛ ويكفي الكاتب أن لا يضع أهدافاً مسبقة لنشاطه، حتى يحافظ على حريته كاتباً. فالكاتب لا يتنفس فقط، بل يكتب أيضاً؛ ولأنه يكتب فهو كاتب. ولكن كتابته طبيعية مثل تنفسه. إنه لا يتساءل عن الهدف من التنفس ثم يتنفس، بل يتنفس أولاً ثم يتساءل لماذا هو يتنفس. وكذلك الكاتب، فهو حينما يبدأ الكتابة فقط، يتساءل عن الهدف من عمله، وعن علته. إن ضروب التفسير التي يقومها هو ذاته لذاته، عما يقوم به، تبدو له ناقصة أو خاطئة أو مزعزعة، فإذا كان لا يعرف الهدف من الوجود، فهو لا يعرف بالضبط تماماً لماذا يكتب. ومع ذلك فهو يكتب باستمرار؛ كما يعيش باستمرار، وهو يتساءل عن معنى حياته. إنه مدفوع إلى الكتابة، أي مدفوع إلى مساءلة نفسه، وإلى النظر إلى ما يحيط به، وإلى قول ما يراه[11].

ولكنه لا يستطيع أن يرسم لنفسه أية أهداف كانت؛ بل الأهداف الانسانية التي يشاطره إياها قراؤه؛ وإلا أصبح كاتباً من دون قراء؛ والكاتب من دون قراء ليس كاتباً. بيد أن الأهداف التي يشاطره قراؤه إياها لا بد لها من أن ترتبط بالقيم الانسانية، وأن تكون صدى لها. وهذا بالضبط هو الذي يجعله كاتباً عالمياً وجديراً بالترجمة إلى اللغات الأخرى.

بيد أن العلاقة بين الكاتب والقارىء ينبغي أن تقوم على الثقة المتبادلة بينهما؛ لأن القارىء إذا شك بأن الكاتب يكتب وفق هواه، وتحت وطأة هواه، كان لا بد لثقته من ان تتزعزع حالاً. وبهذا الصدد يقول جان پول سارتر: «إنني لا أنكر بالتأكيد حينما أقرأ، ان الكاتب يمكن أن يكون تحت وطأة الهوى. وأن بامكانه أن يتصور تصميم كتابه الأول تحت وطأة الهوى. بيد أن تقريره الكتابة يفترض منه أن يبتعد متراجعاً بالنسبة إلى عواطفه. وبكلمة مختصرة، أن يكون حوّل

انفعالاته إلى انفعالات حرة، كما أفعل بانفعالاتي وأنا أقرأه، أي أن يكون في موقف من مواقف السماحة، وعليه، فالقراءة عقد تسامح بين الكاتب والقارىء؛ فكل منهما يمنح ثقته الآخر؛ وكل منهما يعتمد على الآخر؛ ويتطلب منه بقدر ما يتطلب من نفسه؛ لأن هذه الثقة هي نفسها سماحة: فما من أحد بامكانه أن يجبر الكاتب على الاعتقاد بأن قارئه ينتهك حريته؛ وما من أحد بامكانه أن يجبر القارىء على الاعتقاد بأن الكاتب انتهك حريته. إن القرار الذي يتخذه أحدهما والآخر هو قرار حر. وعندئذٍ، يقوم بينهما تفاعل جدلي. فأنا حينما أقرأ أتطلب، وما أقرأه عندئذٍ يحثني عندما تتحقق متطلباتي، على أن أتطلب أكثر من الكاتب،وهذا يعني، أن أتطلب منه، ان يتطلب أكثر مني أنا ذاتي. وفي مقابل ذلك، فإن ما يتطلبه الكاتب هو أن ارتفع بمتطلباتي إلى أعلى درجة. وعليه، فان حريتي حينما تتجلى، تكشف عن حرية الكاتب[12]. ولكن علاقة الثقة بين الكاتب والقارىء، لا يمكن أن تبلغ أعلى درجاتها إلا إذا كانت إنسانية إلى حدٍ بعيد. وعندئذٍ، فهي لن تقنع بالحدود اللغوية، بل لا بد لها من أن تتجاوزها بالترجمة.

تلكم هي العلاقة بين القارىء والكاتب؛ إذ إن عملية الكتابة تتضمن عملية القراءة، بما هي مرتبطة بها جدلياً. وهذان الفعلان المترابطان يتطلبان فاعلين متمايزين؛ إذ ان الجهد الموحد بين القارىء والكاتب هو الذي يبرز هذا الشيء المشخص والمتخيل الذي هو عمل الفكر، انه ما من فن إلا من أجل الآخر، وبالآخر! والحقيقة، ان القراءة تبدو تأليفاً بين الادراك والخلق؛ فهي تضع جوهرية الذات وجوهرية الموضوع في وقت واحد؛ ويكون الموضوع جوهرياً، لأنه مفارق مفارقة صارمة؛ ولأنه يفرض بناه الخاصة؛ ولأنه لا بد للمرء من انتظاره وملاحظته، وتكون الذات جوهرية أيضاً، لأنها ضرورية؛ وضرورتها ليست فقط من أجل الكشف عن الموضوع (أي أن تشهد بأن هناك موضوعاً)، وإنما أيضاً من أجل أن يكون هذا الموضوع إطلاقاً (أي أن تنشئه). وبكلمة مختصرة، ان القارىء يشعر أنه يكشف الموضوع ويخلقه في وقت واحد؛ وانه يكشفه وهو يخلقه؛ أو يخلقه بالكشف ذاته. إنه لا ينبغي لنا أن نعتقد في الواقع، ان القراءة عملية آلية، وإنها نتيجة انطباعات بالاشارات المكتوبة، كما ينطبع لوح فوتوغرافي بالضوء. فاذا كان مشوشاً ومتعباً وأحمق ونزقاً، أفلتت منه غالبية العلاقات، فلا يتمكن من «أخذ» الموضوع... انه يجذب من العتمة جملاً يبدو وكأنها تبرز مصادفة؛ وإذا كان في أحسن حالاته، أسقط وراء الكلمات صورة تأليفية ليست كل جملة منها إلا ذات وظيفة جزئية فيها. هذه الصورة هي «القضية» أو «الموضوع» أو «المعنى». وعلى هذا النحو، لا يكون المعنى متضمناً منذ البداية في الكلمات؛ لأنه خلافاً لذلك، هو الذي يتيح فهم معنى كل كلمة منها؛ والموضوع الأدبي مهما تحقق من خلال اللغة، ليس معطى في اللغة إطلاقاً، انه خلافاً لذلك صمت واعتراض على الكلام بطبيعته[13]. وكل هذا يعني، أن الكاتب يجب أن يرتفع إلى مستوى إنساني، ليتمكن قراؤه من مشاركته في عملية الخلق. هذا المستوى الانساني هو الذي يستحق أن ينقل بين الناس، وان يترجم إلى اللغات الأخرى.

وعلى هذا النحو، فالكاتب يستدعي حرية القارىء، لكي تسهم معه في إنتاج أثره[14]، لأن الكتابة إستدعاء للقارىء من أجل أن يأتي بالكشف الذي شرع الكاتب باستدعائه إلى الوجود الموضوعي باللغة[15]. وهكذا فالكاتب يكتب لكي يتوجه إلى حرية القراء؛ وهو يتطلب هذه الحرية من أجل خلع الوجود على أثره. ولكنه لا يتوقف عند ذلك؛ بل يتطلب فضلاً عنه، أن يردوا إليه هذه الثقة التي منحهم إياها؛ وان يعترفوا له بالحرية الخلاقة؛ وان

يستحثوها بدورهم، باستدعاءٍ مناظرٍ لاستدعائه ومعاكس له. وهنا يبدو الافتحار[16] الجدلي الآخر من افتحارات القراءة؛ فكلما شعرنا بحريتنا، اعترفنا بحرية الكاتب؛ وكلما تطلب الأكثر منا، تطلبنا الأكثر منه. ولكن هذا الاستدعاء ليس استدعاء لأي انسان؛ بل استدعاء لكل إنسان؛ أي استدعاء الانسانية في كل الانسان، مهما كان بلده، ومهما كانت لغته.

وهذا يتضمن عقداً بين الحريات الانسانية؛ لأن القراءة هي اعتراف واثق بحرية الكاتب من ناحية، ولأن المتعة الفنية من حيث تبدو هي ذاتها بوجه القيمة، تتضمن تطلباً مطلقاً حيال الآخر، من ناحية أخرى؛ وهو التطلب الذي يشعر به كل إنسان، من حيث هو حرية، بالمتعة ذاتها، وهو يقرأ الأثر ذاته. وعلى هذا النحو تكون الانسانية كلها حاضرة في أعلى درجات حريتها. إنها تمسك في الوجود عالماً هو عالمها والعالم «الخارجي» في وقت واحد معاً. ان الشعور الوضعي بالفرح الجمالي هو شعور بهذا العالم في كليته، مكوَّن من صور، بما هو وجود ووجوب وجود في وقت واحد معاً؛ وبما هو عالمنا كلياً وغريب عنا كلياً معاً؛ وهو عالمنا بقدر ما هو غريب عنا. فالشعور غير الوضعي يتضمن واقعياً كلية الحريات الانسانية المتناسقة، من حيث انه موضوع ثقة وتطلب عالميين. وهذا يعني، أن الكتابة والقراءة وجها واقعة تاريخية واحدة؛ وأن الحرية التي يدعون الكاتب إليها ليست شعوراً مجرداً خالصاً بكوننا أحراراً. إنها ليست موجودة بالمعنى الخالص للكلمة؛ بل تكتسب في موقف تاريخي. ان كل كتاب يقترح علينا تحريراً مشخصاً، من استلاب خاص[17].

ومن هنا كان لا بد لتوجه الكاتب ـ الكاتب حقاً! ـ من أن يتطلع إلى الناس جميعاً في ظروفهم الخاصة، في محاولة لالقاء الضوء عليها، ومساعدة أصحابها على الخروج منها، إلى وضع إنساني أفضل، في محاولة أخرى لاستلاب الاستلاب ذاته، والعودة إلى الوضع الطبيعي.

والحقيقة، أن الانسان الذي يقرأ، يتخلص على شكل من الأشكال، من شخصيته الاختبارية، ويفلت من أحقاده ومخاوفه ورغباته؛ لكي يجد نفسه في أعلى درجات حريته. وهذه الحرية تتخذ من الأثر الأدبي غاية مطلقة؛ ومن خلاله تصبح الانسانية هذه الغاية. وهي تصبح ضرورة غير مشروطة بالنسبة إلى ذاتها، وبالنسبة إلى الكاتب، وبالنسبة إلى القراء المحتملين. إنه بامكانها إذن ان تتوحد مع الارادة الطيبة التي تكلم عليها كنط، والتي تعامل الانسان في ظروفه كلها، على أنه غاية لا وسيلة. وعلى هذا النحو، يصل القارىء بتطلباته ذاتها، إلى توافق مع الارادة الطيبة، التي دعاها كنط مدينة الغايات، والتي يشارك فيها آلاف القراء في كل بقعة من بقاع الأرض، في كل لحظة، ويصونونها على الرغم من أن بعضهم يجهل بعضاً[18].

وهكذا نجد أن العلاقة بين الكاتب والقارىء هي علاقة إنسانية في جوهرها. وهي تكون كذلك، حينما يتجاوز الكاتب إطار بلده وقوميته، أو يحفر في هذه القومية، حتى يجد فيها جانبها الانساني. إنها علاقة قائمة على الايمان بحرية الانسان، وبرسالته لأخيه الانسان، من أجل النفاذ إلى الحقيقة، ومن أجل رفع الظلم بشتى أنواعه، والقيام بالخير، والتطلع إلى الجمال، وعندئذٍ، ألا تستدعي الكتابة الترجمة، كما تستدعي المقدمات نتائجها، في سبيل إيجاد مناخ إنساني يتنفس فيه كل إنسان؟ فإذا كانت هناك لغات مختلفة متعددة، فان هناك فكراً انسانياً واحداً، وتطلعات إنسانية واحدة، وقيماً إنسانية واحدة. وهذا يبين وجه الحاجة إلى الترجمة، في سبيل تجاوز الأطر اللغوية القومية الضيقة، إلى رحابة الآفاق الفكرية الانسانية الواسعة!

2 ـ الكتابة فعلاً متخصصاً

رأينا التلازم بين الكتابة والترجمة، ولا سيما حينما تكون الكتابة ذات أبعاد إنسانية، ونريد الآن أن ننتقل إلى الكتابة بما هي أفعال متخصصة؛ لكي نتكلم على كل فعل متخصص على حدته، ونرى أبعاده التي توجب ترجمته، ونقله بين الجماعات الانسانية من لغة إلى لغة. وسنبدأ كلامنا بالأدب وترجمته.

(1) الأدب وترجمته: لا يمكننا أن نقول لماذا نترجم الأدب، إلا إذا علمنا لماذا نكتبه. لهذا لا بد لنا من التساؤل: لم الأدب؟ وهل من واجب الأديب أن يقدم لنا إجابات عن تساؤلاتنا، ويدلنا على ما يجب علينا أن نقوم به في هذا الموقف أو ذاك؟ قد يكون هذا واجب العالم أو المفكر أو الفيلسوف أو المصلح الاجتماعي أو المعالج النفسي أو المربي إلخ... أما الأديب فليس شيء من هذا مطلوب منه. وبهذا الصدد يقول أيونسكو: «ولكن ما يهم في الأدب، ليس الادلاء بإجابات أو عدم الادلاء بها. فالكائن الذي يطرح الأسئلة ويجيب عنها، هو كائن له الصفة نفسها التي للكائن الذي يطرح الأسئلة ولا يجيب عنها[19]».

وهذا يعني، أن الأديب قد يجيب عن بعض الأسئلة، وربما لا يجيب عنها؛ وأن الاجابة ليست مهمة في الأدب، لأنها ليست الأساس الذي يقوم عليه، وإذا كان الأمر كذلك، فما الشيء الأساسي في الأثر الأدبي؟ لننظر إلى إجابة أيونسكو عن هذا السؤال، إنه يوازن بين شيكسبير وفيدو، ويقول مفضلاً الأول على الثاني: «وبالاجمال، انني اذا فضلت شيكسبير على فيدو، فهذا لأنه يبدو لي أن عالم شيكسبير أرحب من عالم فيدو، وأكثر تعقيداً، وأعمق إنسانية، وأقرب إلى الصدق منه. ولكن، ماذا اكتشف في شيكسبير مما يتجاوز به فيدو؟

إن ما اكتشفه بالضبط، هو هذا الصخب وهذا الهيجان وتساؤلات أكثر اتساعاً من التساؤلات التي أجدها لدى المسرحيين الفرنسيين. فأنا لا أجد لدى فيدو إضطرابي وهلعي. أما لدى شيكسبير، فما من إجابات هناك، بل تساؤلات وحوادث؛ وأيضاً مشاهدات وبداهات. ليس لديه حل نهائي. وعليه، يمكنني أن أقول: أن نتساءل من دون إجابة، أصدق من أن لا نتساءل مطلقاً[20]». «إذا سألني كاتب أو مؤلف: لماذا أقرأ، أو لماذا أذهب إلى المسرح؟ فإنني سأجيبه: إنني لا أذهب إليه من أجل الحصول على إجابات؛ وإنما للحصول على أسئلة أخرى؛ إنني لا أذهب من أجل اكتساب المعرفة، وإنما بالبساطة كلها، لكي أتعرف شيئاً ما؛ لكي أتعرف أحداً ما، في عمل ما. ففضولي العلمي يتوجه إلى العلم والعلماء. أما الفضول الذي يوجهني إلى المسرح، أو إلى المتحف، أو إلى رفوف الكتب الأدبية في المكتبات، فهو من طبيعة أخرى: إنني أريد أن أعرف وجه أحدهم وقلبه، سواء أحببته أو لم أحببه[21]».

إن هذه التساؤلات التي يتحدث عنها أيونسكو هي تساؤلات إنسانية؛ وهي بما هي كذلك، تهم كل إنسان؛ لأنها توسع من آفاق تطلعاته؛ ولأنها تنفذ إلى أعمق أعماق حقيقته. وهي إذا كانت جوهرية في الكتابة الأدبية، فلأنها عامة تصدق على كل إنسان، ويمكن أن يفيد منها كل إنسان تجربة بالاضافة إلى تجاربه. ويكفي هذا ليجعل الترجمة ضرورية بحيث تصبح إمتداداً لعملية الكتابة ذاتها.

وهذا يعني، ان الاجابات ليست هي التي تخلع على الأثر قيمته الأدبية: فالأثر الأدبي ليس تعبيراً عن جملة من الحقائق العلمية أو الفكرية أو الفلسفية. ان له بنيته الخاصة؛ وهي بنية يشترط فيها الصدق: صدق التعبير. إنه يكفي الكاتب أن يكون صادقاً في كتابة آثاره الأدبية، سواء أكانت روايات أم حكايات

أم أشعاراً أم مذكرات، أم مقالات، أم سيناريوهات أم مسرحيات. فالصدق هو سر نجاح الأديب؛ والصوت الصادق يدوي ويصل إلى المسامع: إن صوت الصدق قوي[22].

ولكن صدق الأديب ليس الصدق العادي الذي نعنيه في حياتنا اليومية؛ بل صدقاً من نوع آخر؛ هو صدق الأثر الأدبي ذاته. ويكون الأثر الأدبي صادقاً حيثما يتم تكوينه، ويصبح كائناً حياً مكتملاً. ان يكون صادقاً حينما يختلط الفن مع الحقيقة، مع هذه الحقيقة الذاتية التي هي حقيقة الفنان الوحيدة. وهي حقيقة كلية إلى حد بعيد، وعميقة إلى حد بعيد، بحيث تنتهي إلى ملاقاة الموضوعية: فالفنان ينبغي له أن يكون موضوعياً، أو صادقاً، في التعبير عن ذاتيته؛ لأن الأثر هو تعبير عن نظرة؛ وهي نظرة تتجسد، أي تصبح متكونة. إنه مرة أخرى كائن حي يضم في ذاته كل التناقضات التي ينبغي أن يكونها، لا كل التناقضات التي تنتهي إلى تحطيمه. فالأثر الأدبي يكون أكثر أهمية، كلما كانت التعارضات وخطوط القوة والانفعالات فيه، معقدة ومتعددة. ان هذا الشبه بالكائن الحي هو الذي يجعل الأثر الأدبي في الوقت ذاته إختراعاً واكتشافاً، خيالياً وواقعياً، نافعاً وغير نافع، ضرورياً وفضلة زائدة، موضوعياً وذاتياً، أدباً وحقيقة، إنه يصدر عن تلاعب بالألفاظ؛ لكنه ليس كاذباً[23]. ومن هنا كانت عبقرية الأدب؛ وكانت ضرورة نقل هذه العبقرية من بلد إلى بلد، ومن لغة إلى لغة.

ولهذا لم يكن للروائي أو القصاص أو الكاتب المسرحي أن يحمل أشخاصه ما ليسوا مؤهلين بطبيعتهم لحمله؛ أو أن يضع على أفواههم كلمات يقتضي الصدق أن لا يقولوها. وهذا ما يحدث لبعض الكتاب الذين يتخذون من أبطالهم وسيلة للتعبير عن قضية، آمنوا ـ هم الكتاب ـ بها. إنه لا يكفي أن نحملهم هذه القضية؛ بل لا بد لهم من أن يكونوا هم تجسيداً لها. والحقيقة، أن الكاتب المؤمن بقضيته قد يكون مزوراً على نحو ما. انه يقود أشخاصه مثلاً نحو هدف محدد؛ ويفرض عليهم اتجاهاً، إنه يعرف مسبقاً ماذا ينبغي لهم ان يصبحوا؛ وهو يسلبهم حريتهم. ليس فنه كشفاً؛ لأنه تابع لمجال استغل في السابق: ليس مخلوقاته إلا دمى يحركها؛ وما من كشوف في ما يصنعه إطلاقاً؛ وإنما شرح وأمثلة، لقد حدد كل شيء منذ البداية. إن الكاتب المؤمن بقضيته لا يمكنه أن يكون كاتباً حسن النية إطلاقاً؛ إنه ليس صادقاً إطلاقاً. ومما لا شك فيه أن أثره وأشخاصه ليس بإمكانها أن يفاجئانا. فما من قضية صادقة موضوعياً إطلاقاً. والكاتب المؤمن بقضية يعطي قضيته الأولوية على كل حقيقة ممكنة أخرى. ومن المؤكد جداً، ان الكاتب المؤمن بقضيته، يمكن ان يكون خالقاً صادقاً. وهذا ضمن الحد الذي يتجاوز فيه، على الرغم من مقاصده البدئية قضيته، سواء أكان ذلك عن وعي أم غير وعي، ضمن الحد الذي يكف فيه أشخاصه عن قيادته، ويصبح محمولاً بسورته الخلاقة[24].

وهذا يعني، أن الكاتب المؤمن بالقضية يكون صادقاً فقط، حينما يكون منطق القضية نابعاً من سلوك أشخاصه، أي حينما يكونون هم أنفسهم، تعبيراً حياً عن هذه القضية.

في هذه الحال، يكون هناك ارتباط بين الأدب والمجتمع؛ ويكون الأدب موجهاً لكل فرد في المجتمع. ان هذا الصدق هو الذي يجعله جديراً بالقراءة أولاً، وبالترجمة ثانياً.

ولكن، بما أن الكاتب يتوجه إلى حرية قارئه، وبما أن كل وجدان مخدوع يميل بما هو شريك في الخداع الذي يكبله، إلى الاستمرار في حالته هذه، فليس بإمكاننا أن نحافظ على الأدب إلا إذا أخذنا على

عـاتقنا تبـديد الخـداع الذي يتعـرض لـه جمهـورنـا. وللسبب ذاته يقوم واجب الكـاتب عـلى التحيـز ضـد ضروب الظلم كلها، كائنة مـا تكون الجهة التي تأتي منهـا[25]. ومن ناحيـة أخرى، إذا كـان تصـور الحـل الاجمـالي يتجاوز قـوى غـالبيتنـا، كـان واجبنـا تجـاوز التعارض بين آلاف التأليفات الجزئية. إنه يجب علينا أن نتخذ موقفاً في حياتنا الكتابية، وفي مقالاتنـا، وفي كتبنـا، على أن نحـافظ على مبـدأ موجـه لنا؛ هـو أن تكـون حـقوق الحـريـة الكليـة هي التـأليف الفعـلي للحريات الشكلية والمادية[26].

ولكن مسـألة الحـرية تقـودنا إلى مسـألة الالـتزام، والالتزام هو ارتباط الكاتب بالمجتمع وقضاياه، ولهـذا كان من واجب الكاتب أن يكون صادقاً في ما يكتبه. فالأثر المكتـوب واقعة اجتـاعية؛ وينبغي للكـاتب أن يكون مقتنعاً بذلك اقتناعاً عميقاً، حتى قبل أن يتناول قلمه. يجب عليه أن ينفـذ إلى صميم مسؤوليته؛ فهـو مسؤول عـن كـل شيء: عن الحـروب الخـاسرة أو الـرابحة، عن ضروب التمـرد وضروب القمـع، إنـه شريـك المضـطهـدين، إن لم يكن الحليف الـطبيعي للمضطهدين. ولكن هـذا ليس فقط لأنه كـاتب؛ بل لأنه إنسان. إن هذه المسؤولية ينبغي له أن يحياها وأن يـريدهـا[27]. ولكن المضطهـدين والمضطهـدين ربما لا يكـونون أفـراداً؛ بل أممـاً يضـطهـد بعضهـا بعضـاً؛ ويسلب بعضهـا حقـوق بعض. وهـذا مـا يجب عـلى الكـاتب الحقيقي أن يضعه نصب عينيـه، وأن يسخر قلمه له، رانياً بعينيه إلى الانسانية كلها، خلف حدود وطنـه، سـواء أكـان أبنـاء وطنـه مضـطهـدين أو مضطهدين. إن مثل هذا الكاتب الانسان، هو الذي تمتد كتابته بالترجمة إلى بلاد الحضارة كلها، حية بالقيم الانسانية التي تحملها، وخالدة خلود الانسانية ذاتها.

(2) العلم وترجمته : أصبـح للعلم أهمية كبـيرة في عصرنا الحاضر؛ حتى ليمكننا أن نقول: أننا نعيش في عصر الـعلم. ولـكن انـتشـار الـعلم لا يـعـني أن المجتمعات كلها تشارك في إنتاج العلم؛ بـل الملاحظ أن بعض المجتمعـات تعيش عـالـة عـلى بعض المجتمعات الأخرى علمياً؛ مما يجعلها محل استهانة في أعين المجتمعات المنتجة للعلم. وبما أن العلم أصبح مقترناً بالتقنيات الصناعية، ولا سيما الثقيلة منها، فإن هذا ينعكس على العلاقات السياسية والاقتصادية بـين الـدول، ويجعـل بعضهـا متحكـماً ببعض سيـاسيـاً واقتصادياً. ومن هنا كان اهتـمام المجتمعات المتخلفـة بـاكتسـاب العلم. ولكن اكتسـاب العلم بـالتجـربـة الذاتية أمـر صعب، بل أصبـح مستحيلاً بعـد التطور الكبـير الـذي انتهى إليـه. ومن هنـا كـانت ضرورة الـترجمة بـاعتبارهـا مرحلة تمهيـديـة لاقـامـة العلم في المجتمعات المتخلفة لتلحق بركب الحضارة المعاصرة.

بيد أن السباق عـلى كسب الجديـد من العلم ليس منحصراً بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة؛ بل هـو عـلى أشده بـين الدول المتقـدمة ذاتهـا؛ ولا سيما بعـد أن تبين أن المعركة بين الدول قائمة على صنـاعة الأسلحـة؛ وان صناعة هـذه الأسلحة أصبحت مقـترنة بـالعلم؛ وأن اخـتراع الجـديـد منهـا رهن بـالكشـوف العلميـة الجديدة. وهذا ما اتضح لرجال السياسة بعد الحـرب العالمية الأولى؛ وأصبح أكثر وضـوحاً لهم بعـد الحـرب العالمية الثانية. فقد كان من أهم نتائج الحرب العالمية الثـانية، أن ازداد الاهتـمام بتقـديـر العلم وأهميتـه في الـوجود الانسـاني، وبالخـطر الناشيء عن تـرك العلم ينمـو دون تنظيم؛ ممـا يؤدي إلى آثار ضـارة تتمثل في زيادة تطبيق العلم زيـادة مفرطـة في صناعـة الأسلحة المدمرة الفتـاكة؛ وخـاصة القنبلة الـذرية[28]. بـل ان الأمـر أخـطر من ذلـك بكثـير؛ إذ إن أيـام السلم أصبحت كلها تمهيداً للحـرب. لقد شغلت السنـوات التي تلت الحرب بتجهيزات علمية استعداداً للحـرب التـالية المتـوقعة. فـالحكومـة تنظر إلى العلم بـاعتباره أحـد الأسلحة الحربية النـاجحة؛ وبعض الحكـومات

لا تعتبر للعلم أية قيمة سوى هذه. ويظهر أثر هذا الاعتبار في الميزانيات الضخمة التي تخصص للبحوث العلمية الحربية، ليس في الحكومات فقط؛ بل في الشركات الصناعية الكبيرة أيضاً[29]. وهذا ما جعل جان جاك سلمون يقول: «أما المجتمع الجديد الذي ولد غداة الحرب العالمية الثانية، فقد جعل من العلميين طبقة من الأكليروس تسير في العمل جنباً إلى جنب مع العسكريين[30]».

وهنا لا بد لنا من أن نتساءل: هل من الممكن قيام مجتمع حديث لا يعتمد على العلم اعتماداً كبيراً؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل بإمكان الدول المتخلفة علمياً، وبالتالي صناعياً، ان تستمر في البقاء من دون العلم؟ وهل بإمكان الدول المتخلفة علمياً، وبالتالي صناعياً، أن تستمر في البقاء من دون العلم؟ وهل بامكان الدول المتقدمة أن تغمض عينيها عن البحوث العلمية التي تقوم بها جاراتها؟ ان هذا هو الذي يجعل الكتابة العلمية تستحق الترجمة من لغة إلى لغة، سواء بالنسبة إلى الدول القوية والدول الضعيفة: الدول القوية لتحافظ على قوتها؛ والدول الضعيفة لتلحق بركب الأمم القوية، وتحافظ على وجودها.

والحقيقة، ان المعرفة العلمية، مهما كان عمقها واتساعها، لا تنتهي عند مرحلة الحصول عليها، والتأمل في جمالها وجلالها؛ بل ترجع ثانية إلى المجتمع، لتكون قوة له في تحقيق آماله في الوصول إلى أهدافه. فالمعرفة التي استمدت من المجتمع ترجع إليه على صورة تطبيقات في الزراعة والصناعة والمواصلات والطب والهندسة والتربية والثقافة والحرب والسياسة واللهو والتسلية وغير ذلك[31]. وكلها أمور لا بد للمجتمعات الانسانية أن يكتسبها بعضها من بعض، ولا سيما المتخلفة منها. والاكتساب لا يكون إلا بالاطلاع والترجمة، تمهيداً لإقامة مؤسسات البحث العلمي المختلفة.

ويتضح من هذا، أن علاقات العلم بالمجتمع قد اجتازت مرحلة حرجة؛ وأصبح الحكم على حالة أي جزء معين من أجزاء العالم، وعلى درجة تقدمه، رهن بمدى استعانته بالعلم. وبذلك أصبح نشر المعرفة العلمية الفعالة وامتدادها إلى المناطق التي كانت تفتقر إليها من قبل، واجباً عاجلاً بالغ الأهمية والخطر[32]. ولهذا السبب كانت ترجمة الكتب العلمية من الضرورة بمكان؛ بما هي تمهيد لاقامة المؤسسات العلمية.

بيد ان ضرورة الترجمة لا تقتصر على ذلك؛ فمن ضروراتها علمياً، ان العلماء في انحاء الارض يكتبون بلغاتهم القومية؛ مما يجعل امر متابعة الابحاث العلمية من الصعوبة بمكان؛ بل مستحيلاً، اذا لم يتسلح العالم بعدد من اللغات الاجنبية، تسهل عليه أمر متابعة الابحاث العلمية في مصادرها الأصلية. والحقيقة، فقد انقسم العلم في العالم إلى معسكرات يتعذر التفاهم بينها وإن أمكن التفاهم في داخلها، بواسطة حواجز اللغة التي تفصل مجتمعاً عن مجتمع. فاللغة المشتركة بين قوم ليست مظهراً للوحدة فقط؛ بل هي أداة للحياة أيضاً. ولكنها تصبح غير كافية حينما يتطلب الأمر الاتصال بالأقوام الأخرى ذات اللغات المغايرة. أما في مجال العلم فقد أصبح المشتغل به يضيع مجهوداً عظيماً في محاولة اتقان عدد من اللغات الأجنبية؛ والا فاته الاطلاع على اعمال علمية قيمة؛ ولا ينتظر ان يراها الا بعدة مدة، حينما تترجم او تلخص بلغته[33].

هذا بالنسبة إلى المجتمعات المتقدمة التي أخذت بأسباب العلم؛ فكيف يكون الأمر بالنسبة إلى الشعوب النامية، والعربية منها؟ بدأت نهضتنا الحديثة عندما اتصلنا بالحضارة الغربية، وقد أخذنا عنها الكثير من جوانب حياتها السياسية والثقافية والاقتصادية. ولكن مؤسسات العلم لما تقم لدينا؛ وما زالت جامعاتنا ومدارسنا الابتدائية والاعدادية

والثانوية تستهلك العلم الغربي، من دون أن تسهم فيه أقل اسهام. ومع ذلك، فإن ما اخذناه من العلم لا يخولنا أن نقول: ان هناك علماً عربياً. ومن هنا كانت ضرورة إقامة علم عربي؛ ولكن اقامته تحتاج إلى أسس ممهدة، والترجمة واحدة منها.

ويبدو أن التطلعات الإنسانية أبعد مما ذكرنا. فقد رأى الكاتب الانكليزي هـ.ج. ويلز، أن العصر يتطلب موسوعة علمية عالمية تكون الأساس العقلي للبشر. يقول: «ستكون دائرة المعارف العالمية هذه الأساس العقلي لكل رجل ذكي في العالم. وستكون حية نامية تتناولها يد الاضافة والتغيير، وتستبدل اجزاؤها، وتعدل مادتها على أساس الانتاج الفكري المبتكر في العالم كله. وينبغي أن تستمد مادتها وتعديلاتها من كل جامعة ومعهد للبحوث في العالم؛ كما ينبغي أن يكون كل عقل ناضج متفتح على اتصال بهيئتها الإدارية[34]».

لقد شعر هـ.ج. ويلز بالحاجة إلى هذه الموسوعة العالمية، بالنسبة إلى بلد متقدم مثل بلده انكلترا. وهذا ما يشعر به كل عالم في البلاد المتقدمة. فما بالك بالنسبة إلى البلاد المتخلفة؟ واذا كانت هذه الموسوعة تسعى إلى أن تشمل أحدث النظريات العلمية التي يصل إليها العلماء في شتى أنحاء العالم، فهل من سبيل إلى إقامتها غير الترجمة؟ وهي بعد صدورها، وتعديلها، وتجديدها، مرة بعد مرة، الا تحتاج إلى ترجمة لكي تفيد منها شعوب الأرض جميعاً؟ وعندئذٍ، الا تسهم الترجمة في نشر العلم، والتقريب بين العقول في مجاله، ليكون هذا تمهيداً للتقريب بينها في المجالات الأخرى، من أجل رفع راية القيم الإنسانية في كل مكان؟

(3) الفكر وترجمته: ولكن العلم قد يستخدم للخير أو للشر. وهذا ما جعل قضية العلم مرتبطة بقضية الفكر. وبما أن الأمم التي عاشت مشكلة العلم، هي وحدها تعرف كيف يكون سبيلاً للخير أو للشر، كان لا بد للأمم الأخرى من أن تفيد من تجربتها. ومن هنا تبدو ضرورة ترجمة الفكر بما هو امتداد لقضايا العلم والتقنية المعاصرين بخاصة، وبما هو مرتبط بالحضارة المعاصرة بعامة.

والحقيقة، فالحرب العالمية الكبرى والأزمات الاقتصادية التي جاءت على أثرها أظهرت بجلاء، أن العلم قد يستغل للخراب والتدمير. ولذلك ارتفعت أصوات من هنا وهناك، تنادي بمراقبة العلم وضرورة توجيهه لمصلحة الانسانية كلها، لا لمصلحة فئة متسلطة من الناس أو الدول. والحقيقة، أن العلاقة بين العلم والمجتمع التي أشرنا إليها؛ والتي تصبح علاقة بين العلم والانسانية قاطبة، لا يمكن أن تترك فوضى بين أيدي الأفراد أو الدول، وإلا أدى هذا إلى خراب الانسانية كلها. ومن هنا كانت ضرورة المسارعة إلى الفكر من أجل إيجاد الحلول الملائمة التي تجعل العلم سبيلاً إلى الخير. يقول پول ڤاليري بهذا الصدد: «ففي الحين الذي نعتقد أننا اخضعنا لنا القوى والأشياء، لا نجد اغتيالاً واحداً من هذه الاغتيالات العالمية التي ارتكبناها ضد الطبيعة، لم يخضعنا خلافاً لذلك، بطريق مباشر أو غير مباشر لها، بشيء أكثر قليلاً؛ ولم يجعلنا عبيداً لقوتنا، وكائنات يزداد نقصها كلما ازداد تسلحها؛ وتصبح رغباتها وحاجاتها ووجودها ذاته، ألعوبة في يد عبقريتها ذاتها[35]».

لهذا كان لا بد لنا من اخضاع العلم للفكر، ودمجه في الثقافة الانسانية، في سبيل جعله مدخلاً إلى الخير: خير الانسانية كلها في كل مكان وزمان. فالعلم مهما تجرد لا بد له من أن يظل انسانياً. ومن هنا كانت ضرورة كتابة الفكر أولاً، وضرورة ترجمته ثانياً. أما الكتابة فلأن الحقيقة تبدو لنا - كما يقول لويس لاڤيل - بروقاً خاطفة؛ ولأن فكرنا سرعان ما

يعود إلى حالته الطبيعية بما فيها من عطالة وظلمة؛ فنشعر وكأنما تُخلي عنا؛ وكأن الجهد المؤلم الذي نقوم به من أجل استعادة النور المفقود، لا يكشف إلا عن عجزنا؛ واننا اذا توصلنا إلى اجتذاب هذا النور بالكتابة، أصبحنا قادرين على احيائه حينما يبدو أنه انطفأ. ان هناك لحظات مميزة تمر فيها الحقيقة أمامنا، وتلامسنا، لكي تفلت منا بسرعة. والكتابة هي تتيح لنا احياءها على نحو غير محدد[36]. وأما الترجمة فلأن التجربة التي يمر بها أفراد أمة بعينها، ربما لا يمر بها أفراد أمة أخرى؛ فالعبقرية نادرة ولا تدري أية أمة متى يجود الزمان عليها بعبقرييها، عدا أن عبقريتهم قد تتجه إلى الكشف عن أمور مغايرة. هذا فضلاً عن أن الفكر يتطلع إلى الوحدة الشاملة ما وراء الأفراد والأمم!

وعلى هذا النحو، تتراءى الأفكار للناس فجأة دائماً وعلى الرغم منهم؛ والفارق الوحيد الذي يقوم بينهم هو أن بعضهم يعرف كيف يلتقطها ولا يعرف الآخرون. فمن خصائص العبقري هو ايلاؤه انتباهه لأنوار خافتة تنير نفوس الناس جميعاً؛ ولكن غالبيتهم تلاحظها بمشقة؛ إذ إنها تنطفىء بسرعة تقريباً؛ اذا لم يبذل المرء عنايته كلها، في اسكانها بيوتاً من الألفاظ، وفي نفح الحياة فيها[37]. واذا كانت العبقرية شيئاً نادراً، كان لا بد من نقل ثمرات هذا العبقريات النادرة من مجتمع إلى آخر؛ ليكون مقرباً بين المجتمعات المختلفة، وتراثاً للإنسانية قاطبة. والترجمة تقوم بهذه المهمة كما لا يخفى! وقد قامت به منذ القديم؛ فماذا عساه يكون الفكر العربي لولا ترجمة الفكر اليوناني؟ وماذا عساه يكون الفكر الاوروبي الحديث لولا ترجمة التراث العربي سواء ما كان مترجماً منه وما كان أصيلاً؟

وهكذا يمكننا أن نرى قيمة الفكر؛ فقد غير الفكر العالم، ورد له العالم ذلك رداً حسناً. لقد قاد الإنسان إلى مكان ما كان بمقدوره أن يذهب اليه. وقد منح طعم الحياة ووسائلها، واعطاه القدرة على العمل، التي تتجاوز قوى التلاؤم تجاوزاً بعيداً؛ بل اعطاه أيضاً المقدرة على فهم الآخرين، وألهمه الرغبات، ووضع بين يديه النتائج التي تفيض كثيراً عما هو نافع للحياة. فابتعد بذلك ابتعاداً متزايداً عن الشروط الابتدائية للحياة؛ منجرفاً بسرعة متزايدة إلى حد اثارة القلق فيه، في وضع أصبح معه تعقد الأشياء وعدم ثباتها وفوضاها المميزة أموراً تضله وتمنعه من القيام بأقل نصيب من التنبؤ، وتسلبه كل امكان من امكانات التفكير في المستقبل، وتحديد التعاليم التي تعود سابقاً طلبها في الماضي؛ وتمتص في اندفاعها وتدفقها كل جهد من جهود التثبت والبناء، سواء أكان عقلياً، أم اجتماعياً؛ كما تمتص الرمال المتحركة قوى الحيوان الذي يغامر بنفسه فيها[38].

وهذا يعني، أن المؤلفات الفكرية تعالج مشكلات الانسان بما هو انسان؛ وأنها بما هي كذلك تستحق الترجمة.

(4) الفلسفة وترجمتها: ولكن الترجمة الفكرية والعلمية والأدبية تستتبع كل منها الترجمة الفلسفية: فالأدب يثير مسائل كثيرة منها الفلسفية وغير الفلسفية؛ سواء أقصد الكاتب إلى ذلك أم لم يقصد. ربما لا يكون لدى الكاتب اجابات عن هذه المسائل؛ ولكن قارئه يفترض فيه أن يمتلك الإجابة. ويكفي أن نقف قليلاً عندما رواه لنا ايونسكو، وان نتأمله، حتى نقتنع بذلك. قال: «منذ أن يكتب أحدنا موشحاً أو مسرحية هزلية أو أغنية أو رواية أو مأساة، يهرع الصحفيون إليه، لكي يعرفوا ما رأي كاتب الأغنية أو المأساة في الاشتراكية والرأسمالية، في الخير والشر، في الرياضيات والملاحة الفضائية، في نظرية الكم والحب، في الطبخ ورئيس الدولة. حينما تركت عبارة المركب، وحقائبي بيدي، سألني صحفي من أميركا

الجنوبية: «ما تصوركم للحياة والموت؟» فوضعت حقائبي من يدي، وجففت العرق عن جبيني، ورجوت أن يمنحني عشرين سنة للتفكير في السؤال، من دون أن أكون قادراً على ذلك، على أن أطمئنه بأنه سينال جواباً. وقد أجبته: «هذا بالضبط ما أسأله نفسي؛ وأنا أكتب من أجل أن أسأله نفسي». وتناولت حقائبي؛ وأنا أعتقد أنه لا بد لي من أن أكون خيبت رجاءه. ما من أحد يحمل مفتاح العالم في جيبه أو حقيبته[39]».

وهذا الذي قاله ايونسكو عن الأدب، يمكن أن نقول مثله عن العلم، فالمكتشفات العلمية وتطبيقاتها التقنية ما زالت تحيرنا؛ ونحن لا ندري أهي لخير البشر أم لشرهم. وهذا عبر عنه السيد الفرد اونج منذ خمسين سنة، في خطبة الرئاسة التي القاها في المجمع البريطاني سنة ١٩٣٢. قال: «إننا نلحظ اليوم تغيراً محسوساً في رأي المفكرين عما يسمى التقدم الميكانيكي؛ فالاعجاب يشوبه النقد؛ والاطمئنان حل محله الشك؛ والشك يكاد يصبح ذعراً. هناك شعور بالحيرة والاخفاق، كالرجل الذي قطع شوطاً طويلاً، ثم تبين له انه لم يتبع الطريق الصحيحة؛ فالرجوع إلى البداية أضحى متعذراً. فكيف السبيل؟ أين سيجد نفسه اذا اتبع هذه الطريق أو تلك؟ ولعلكم تستميحون لي عذراً كأحد الأنصار القدامى للميكانيكا، اذا عبرت عما يخالج نفسي من شعور، عندما زالت غشاوة الخداع عن عيني. فأنا أقف اليوم على جانب الطريق، وتمر أمامي سراعاً مواكب الاكتشاف والاختراع التي تعودت أن اسر لها سروراً عظيماً؛ ولا مناص من أن نسأل: إلى أين ينتهي هذا الموكب الحافل؟ وما الغاية النهائية المقصودة؟ وما أثره المقبل على البشرية؟[40]».

اذا صح ما قاله السيد الفرد اونج قبل خمسين سنة، فهو اليوم أكثر صحة بكثير، ولا سيما بعد صنع القنابل النووية والنيترونية والصواريخ عابرة القارات. فكيف لا ينقلنا العلم إلى الفكر؟ وينقلنا الفكر إلى الفلسفة؟ بيد أن ما يثيره العلم أمامنا من مسائل، لا يمكن أن يحله لنا الفكر حلاً نهائياً، ما لم يتجاوز نظرية الجزئية إلى نظرة كلية، تبلغ الشمول الفلسفي. والحقيقة، أن الفكر السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو التربوي الخ... يظل مرتبطاً بمجالات جزئية، ولكن السياسة جانب واحد من حياة الإنسان؛ والاقتصاد جانب آخر؛ وكذلك كل من الاجتماع والتربية. في حين أن الانسان كل هذا معاً، في تشابكه المشخص وتفاعله وتطوره؛ فضلاً عن علاقته بالعالم ونظرته إلى الكون. لهذا كان الفكر - بما هو جزئي - ليس كافياً لحل مشكلات الانسان، والتطلع ما وراءها إلى استمرار تقدمه انسانياً؛ وكانت الكتابة الفكرية، بما هي حل لمشكلات جزئية، تدخل الفوضى إلى أمورنا الانسانية، اذا لم يتناولها التفكير الفلسفي الشمولي ويلم من شقها، ويزيل تناقضاتها. هذه الفوضى عبر عنها بول ڤاليري حينما رأى أن العالم الحديث يتشكل على صورة فكر الانسان. فقد بحث الانسان في الطبيعة عن كل ما يحتاج إليه من وسائل وقوة؛ لكي يجعل الأشياء حوله سريعة ومتغيرة ومتحركة بقدر سرعته وتغيره وحركته؛ عجيبة وعابثة ومشوشة ومعجزة بقدر عجب فكره ذاته وعبثه وتشويشه واعجازه. ولكن الفكر - والحالة هذه - لا يمكن أن يتنبأ بذاته... اننا لا نتنبأ مطلقاً إلا بردود أفعالنا. فاذا طبعنا اذن على العالم الإنساني أسلوب تفكيرنا، أصبح من جراء ذلك مثله، لا يمكن التنبؤ به، فهو يأخذ من فوضاه[41].

ولهذا كان لا بد من ربط الأدب والعلم والفكر والفلسفة؛ اذا شئنا أن نفهم الإنسان والعالم الذي يعيش فيه، واذا كانت ترجمة الأدب والعلم والفكر ضرورية كما رأينا، فإن ترجمة الفلسفة لا بد أن تكون ضرورية أيضاً، لاكتساب النظرة الشمولية التي تربط

جميع المشكلات الفكرية بعضها ببعض، وتزيل التناقض القائم بينها. والحقيقة، أن مسائل الأدب والعلم والفكر تقودنا إلى ذلك، حينما تلامس أبعادها الانسانية. فنحن على حد تعبير سارتر، نحمل على أكتافنا مهمة ربما لم نكن أقوياء بما فيه الكفاية على حملها، وهي أن نخلق أدباً (وعلماً وفكراً) يبلغ المطلق الميتافيزيقي، ويوفق بينه وبين نسبية الواقعة التاريخية، وهو أدب قد دعاه أدب الظروف الكبيرة؛ لأنه لم يجد تسمية له أفضل من هذه التسمية[42].

وهذا يعني، أن الخروج من هذا الوضع لا يكون إلا بالفلسفة: الفلسفة بما هي فلسفة الإنسان، وبما هي ميتافيزيقا. يقول سارتر في تقديمه «الازمنة الحديثة»: «تريد مجلتنا ان تسهم بنصيبها المتواضع في اقامة انسياء (انتربولوجيا) تأليفية، بيد أن الأمر لا يتعلق - ونحن نكرر ذلك - بالاعداد لتقدم في مجال المعرفة الخالصة: فالهدف البعيد الذي نضعه نصب اعيننا هو التحرير. فالانسان، لأنه كل، لا يكفينا أن نمنحه في الواقع، حق الانتخاب، من دون أن نحسن العوامل الأخرى التي تكونه: يجب أن يتحرر كلية، أي أن يصبح شيئاً آخر، بتأثيره في تكوينه الحيوي بقدر تأثيره في شروطه الاقتصادية، وتأثيره في عقده الجنسية بقدر تأثيره في معطيات موقفه السياسي[43]. لأن الميتافيزيقا ليست نقاشاً مجدياً حول مفهومات مجردة تفلت من التجربة؛ فهي جهد حي لمعانقة الظرف الانساني في كليته، من داخله[44].

تلكم هي أهمية الكتابة الفلسفية. ولكنها تختلف من فرد إلى فرد؛ ومن أمة إلى أمة. وهذا يتطلب مشاركة انسانية. وهذا لا يمكن أن يكون من دون ترجمة ونقل؛ ما دامت هناك لغات مختلفة كثيرة يستخدمها البشر في التفاهم فيما بينهم؛ وما دامت هناك مجلات وكتب تصدر في أمكنة مختلفة، بلغات مختلفة.

ولكن مهمة الفلسفة يمكن أن تتجاوز ذلك، إلى تكوين الفكر النقدي أيضاً؛ إذ أن اللغة قد تكون غير دقيقة، ولا بد للفكر الفلسفي - بما هو فكر نقدي - أن يتصدى لبيان عدم الدقة في ما يكتب. فاللغة - سواء أكانت لغة الأصل المكتوب أم لغة النص المترجم - يجب أن تتوخى الحقيقة، وأن تسمي الأشياء بأسمائها؛ لأنها اذا كانت وسيلة تضليل، أصبح الفكر معها مضللاً. وهذا ما انتبه إليه ايونسكو حين قال «انني أتكلم كثيراً في الصفحات التالية، كما يتكلم الناس كثيراً حولنا، على استحالة توصيل اللغة، أو على أزمتها. ان هذه الأزمة مصطنعة وارادية في الأعم الأغلب: فالدعاوة قلبت - وهي واعية بذلك - معاني الكلمات، من أجل تشويش العقول، وهذه طريقة من طرائق الحرب الحديثة. فحينما يقال عن الأبيض أسود، وعن الأسود أبيض، يصبح من الصعوبة بمكان في الواقع، أن يجد المرء، نفسه بين ما يقال. انني غالباً ما أشاهد تحطيم اللغة أو تشويهها ارادياً؛ وأشكو من ذلك. انني أشاهد أيضاً ابتذالها الطبيعي. كذلك أشاهد آليتها التي تجعلها تنفصل عن الحياة؛ وعندئذٍ، أتصور أنه ليس من الواجب اعادة ابداعها واصلاحها إلى حد بعيد. فربما انتهى هذا إلى الأمر ذاته. ولكن من البديهي أن سوء النية هو أخطر الأمور جميعاً. وقد بينت انني على سبيل المثال، كنت ساذجاً إلى حد بعيد، حينما تحمست للبرهان على أن هناك ضروباً من النشاط النزيه؛ في حين أن أي انسان يعرف ذلك من لاعبي كرة القدم، أو لاعبي الورق، أو لاعبي الشطرنج، أو لاعبي الادريس الخ... بيد أن السياسيين لا يريدون أن تكون الفعالية المسرحية نزيهة ومجانية. انهم يكرهون بقاءها حرة وافلاتها من ايديهم[45].

وهكذا نرى ضرورة الكتابة الفلسفية مرة أخرى، من أجل تبديد الخداع الذي يتخذ من مغالطات

اللغة وسيلة له. ولكن هذه المهمة، وان كانت مهمة المفكر والفيلسوف فهي تجد امتدادها في الترجمة.

خاتمة - الترجمة وقيمة الكتابة

يمكننا أن نستخلص مما قلناه، ان الترجمة ذات قيمة، وان قيمتها مستمدة من قيمة الكتابة في المقام الأول؛ وان لها قيمتها بما هي ترجمة أمينة ومعبرة في المقام الثاني. بيد أن قيمة الكتابة لا تبدو الا من خلال قيمة الترجمة، سواء أكانت ترجمة للأدب أم للعلم أم للفكر أم للفلسفة.

والحقيقة، أننا بالكتابة نكشف عن حقائق الكون والانسان؛ بيد أن بعض هذه الحقائق جزئي وبعضها كلي. والحقائق الجزئية لا تكون مؤدية إلى الخير إلا في انسجامها في حقيقة كلية تتجاوز الزمان والمكان بما هما في أصل كل تجزيء. فما يتجاوز الزمان والمكان يستحق البقاء؛ وما يستحق البقاء ينبغي أن يظل موجهاً للبشر جميعاً، في كل بقعة من بقاع العالم، لما ينطوي عليه من قيمة كبيرة: قيمته بما هو اثر مكتوب؛ وقيمته بما هو ذو نزعة انسانية. وقد رأينا ان الأدب يقدم لنا الانسان على حقيقته، محاولاً النفاذ إلى أعماقه؛ وان العلم يطلعنا على حقائق الكون وحقائق الانسان؛ وإن الفكر يتعمق هذه الحقائق في علاقاتها الجزئية، لكي تأتي الفلسفة وتكشف عن علاقتها الكلية. بيد أننا وجدنا أن الحرية والقيم توجهان حياة الانسان، وترفعانها الى مستوى التناسق والانسجام؛ بحيث تصبح ضرورية لتوافق البشر فيما بينهم، خوفاً من اختلاف ينتهي إلى تدميرهم. ولكننا وجدنا أن هذا رهن بتعميم التجارب الانسانية التي يلخصها الأدب والعلم والفكر والفلسفة؛ وأن هذا التعميم لا يمكن أن يتم من دون الترجمة. فالترجمة هي وسيلة الإفادة والتفاهم بين البشر، وهي عامل من عوامل نشر القيم الانسانية بينهم.

إن حواجز اللغة لا يمكن تجاوزها من دون ترجمة؛ وما دامت شعوب العالم تتكلم لغات مختلفة متعددة، فلا بد من الترجمة وسيلة من وسائل التواصل الحضاري والثقافي. فيها يمكن للأثر المكتوب أن يتخطى حدود البلد الذي صدر فيه، ليصل إلى كل مكان يعيش فيه الانسان ويفكر. واذا كان واجب الكاتب هو الارتفاع فوق حياته الخاصة، وفوق ظروف مجتمعه وقضاياه، لكي يرى القيم الانسانية السامية من خلال ظروف مجتمعه وقضاياه، فان واجب المترجم هو أن يضع هذه القيم أمام عينيه، وأن ينقلها إلى القراء في مجتمع جديد؛ في سبيل أن يروها من خلال ظروف مجتمعهم وقضاياه، حيث يلتقي قراء البلاد المختلفة على صعيد القيم الانسانية المشتركة. وهذا وحده كافٍ للتقريب بين البشر؛ ويكون أثره أوسع كلما كان الأثر المكتوب مترجماً إلى عدد أكبر من اللغات. فبوركت الترجمة بما هي رسالة انسانية تتطلع إلى الحق والخير والجمال بالاضافة إلى البشر جميعاً!

ولكن هذه النتيجة تفترض إمكان الترجمة؛ وتعتقد بوجود موازاة تكاد تكون تامة بين اللغات. فاذا ألقينا ظلاً من الشك على هذه الموازاة، الا يصبح امكان الترجمة محل ارتياب؛ ويتناول هذا الارتياب كل ما قلناه؟ ههنا لا بد لنا من التوقف عند رأي لپول ڤاليري في خصائص اللغة الفرنسية وفي مأساة الترجمة. يقول: «ان لغتنا هي التي تميزنا إلى حد بعيد؛ كأنها اثر على خريطة مملكة العقول. فالأدب ليس بعد كل شيء الا استغلالاً لبعض خصائص لغة معينة؛ فبحسب بنية هذه اللغة وآليتها، تكون هذه التعابير ممكنة أو غير ممكنة؛ مرغوباً فيها أو غير مرغوب فيها؛ قوية أو ضعيفة: ولسنا بحاجة إلى أكثر من ذلك لتوليد الفوارق القومية الخطيرة، ليس فقط بين طرائق الكتابة، بل أيضاً بين الفرنسيين أنفسهم. فما يبدو محدداً تحديداً كافياً في لغة ما، يبدو غامضاً أو

ملتبساً في لغة أخرى؛ مهما قيل، بواسطة الكلمات الموائمة أو التي تبدو كذلك. وفي هذا تكمن مأساة الترجمة كلها![46]».

لا شك أن لكل لغة مميزاتها التي تتفرد بها دون سائر اللغات الأخرى. ونحن لا يمكننا إلا أن نشاطر پول ڤاليري هذا الرأي! ولكن، هل هذا كاف لكي تصبح الترجمة مأساة؟ إننا لا نعتقد ذلك. والدليل على ذلك هو قيام الترجمة بين لغات الأمم المتحضرة كلها. ولكن هل يكفي قيام الترجمة، لتعني دقة الأداء في اللغة المترجم اليها، لما ورد في اللغة المترجم منها؟ لا بد لنا أن نلاحظ قبل أن نمضي بعيداً في الإجابة، ان رأي ڤاليري خاص بالأدب. وقد يبدو أن ما قيل عن الأدب لا يصح تعميمه على كل من العلم والفكر والفلسفة. ولكن، هل لغة الأدب غير لغة العلم والفكر والفلسفة؟ نعم، هناك فروق بين لغة الأدب من ناحية، ولغة العلم والفكر والفلسفة من ناحية أخرى. ولكن هذه الفروق تنحصر في ثلاثة أمور: الموضوع، والتجريد، والمصطلح. أما الموضوع فلا يجب أن نتوقف عنده، لأن القضية التي نحن بصددها لغوية من ناحية؛ ولأن اختلاف الموضوع قد يكون في الأدب ذاته من ناحية أخرى. وكذلك التجريد لا يجب ان نتوقف عنده لأنه خصيصة من خصائص الموضوع ملحقة به. بقي المصطلح، وهو أمر نجده في العلم والفكر والفلسفة ولا نجده في الأدب. فهل يكفي ليمنعنا من تعميم كلام پول ڤاليري؟؟ اننا لا نعتقد ذلك؛ فالمصطلحات محدودة جداً اذا قيست بكلمات اللغة الأخرى!

واذن، فالترجمة ممكنة إلى حد بعيد؛ وفيها تتدخل براعة المترجم إلى حد بعيد، وبراعة المترجم تتعلق بمدى اتقانه اللغة التي ينقل منها، واتقانه اللغة التي ينقل اليها، ومعرفته الموضوع الاختصاصي للكتاب المترجم، وثقافته العامة التي يتمتع بها حين الترجمة، في موازاة الثقافة العامة التي ضمنها الكاتب كتابه. وهذه الشروط المطلوب توافرها في المترجم قلما نجدها فيه. هذا أمر بديهي ولا بد من التسليم به. ولهذا يقول المثل الايطالي: الترجمة خيانة. واننا نرى أن الكاتب وحدة ثقافية لها حياتها الخاصة في فترة تأليف الكتاب؛ وان المترجم وحدة ثقافية أخرى لها حياتها الخاصة في فترة ترجمة هذا الكتاب؛ وان تطابق هاتين الوحدتين الثقافيتين تطابقاً عاماً، امر نادر جداً، بل مستحيل. ولكن هذا راجع إلى اختلاف الوحدتين الثقافيتين الكبيرتين المعبرتين عن الامتين اللتين ينتمي إليهما الكاتب والمترجم بعامة، وإلى اختلاف الوحدتين الثقافيتين الصغيرتين المتضمنتين فيهما، وهما الكاتب والمترجم، بيد أن هذا الاختلاف وذلك لا يعنيان انعدام الجسور بين الأمتين من ناحية، وبين الكاتب والمترجم من ناحية أخرى: فالمترجم رجل تثقف بثقافة الأمة التي يترجم من لغتها، وهو متعاطف في كثير أو قليل مع الكاتب الذي يترجم له، ومع الأثر الذي يترجمه، . واذن، فهناك أكثر من جسر قائم بين المترجم والكاتب: ثقافة الأمة التي يترجم من لغتها، والتعاطف مع الكاتب بعامة، ومع اثره بخاصة. هذا اذا افترضنا الانقطاع التاريخي بين الأمتين؛ وهو اذا صح بالنسبة إلى أمم العصور القديمة، فلا نعتقد أنه يصح بالنسبة إلى الأمم المعاصرة، حيث تشابكت العلاقات الانسانية بين أمم الأرض جميعاً!

ولكن پول ڤاليري يلح على عنصر اللغة، على الوعاء اللفظي الذي يقدم فيه الأثر؛ ونحن أشرنا إلى الثقافة العامة والخاصة للكاتب والمترجم؛ أي لمضمون هذا الوعاء. فهل ترانا نغالط، ونحن نحاول الرد على كلام پول ڤاليري؟ قد يكون الأمر كذلك، اذا حق لنا أن نفصل بين اللغة والفكر، بين الوعاء ومضمونه، بين المبنى والمعنى! ولكن، هل مثل هذا الفصل ممكن؟ واذا هو أمكن، فهل ينتهي إلى الفصل

التام بين الجانبين؟ إننا لا نعتقد ذلك! وهذا يعني، ان للاجابة التي قدمناها فيها من الوجاهة ما يكفي لتقديمها!

ولكن، قد يكون الأمر أبعد شمولاً مما تناوله پول ڤاليري: فهو لا يتعلق بالترجمة بقدر ما يتعلق بالكتابة ذاتها؛ فكل كلام له معنى؛ وقد يستخلص السامع او القارىء منه غير المعنى أو أكثر من المعنى الذي أراده صاحب الكلام. وفي هذه الحال، لا تكون المسألة مسألة ترجمة بل مسألة فهم؛ أي تضمين المعاني في اللغة الواحدة. وهذا يرتد إلى علاقة اللغة بالفكر.

تلكم اجابتنا على هذه المسألة. ونحن نعتقد أنها كافية! ولكن، ماذا لو اعتقد بعضهم أنها غير كافية؟ في هذه الحال، لا بد لنا أن نلاحظ على رأي ڤاليري، انه لا ينفي امكان الترجمة اطلاقاً، بل ينفي امكان الوصول إلى تحديد كافٍ يزيل أسباب الغموض والالتباس. وهذا يعني، أن بعض الأمور قابلة التحديد في لغة ما، ليست كذلك في لغة أخرى. ومنه نستخلص ان التحديد يتناول جانباً معيناً من النص؛ أي أن قسماً منه ـ ونعتقد انه الأكبر ـ يمكن تحديده؛ وان قسماً آخر ـ ونعتقد أنه الأصغر ـ لا يمكن تحديده. وهذا يعني امكان الترجمة على وجه العموم. وفضلاً عن ذلك، فالقسم الذي لا يقبل التحديد، لا بد من التعبير عنه في النص المترجم على نحو من الانحاء. صحيح أنه لا يتطابق مع النص الأصلي مطابقة كافية؛ لكنه يؤدي تأدية ما، فيها نقص أو زيادة أو تحوير للمعنى. وعندئذٍ فإن الأمر بالنسبة إلى قارىء الترجمة أما أن يفقد شيئاً من المعنى، أو يكسب معنى إلى معنى، أو يحصل على معنى بدلاً من معنى، وفي هاتين الحالتين الأخيرتين ينفتح أمامه أفق جديد غير الأفق الذي فتحه النص الأصلي. وهو من هذه الناحية اثراء للفكر الانساني تم بفضل الترجمة.

وهنا نقف لنتساءل: الا يعني هذا أن النص يحمل معنى أبعد بكثير من المعنى الذي قصد إليه الكاتب؟ هذا ما نراه؛ وهو كافٍ لبيان فضل الترجمة في اثراء التراث الانساني، وفي فتحها آفاقاً جديدة على النص المترجم!

الحواشي

(1) لويس لاڤيل Louis Lavelle: **الشعور بالذات** La Consciense de soi طبعة جديدة ص 66 - 67، غراسيه، باريس 1953.

(2) المصدر السابق ص 69.

(3) جان پول سارتر Jean - Paul Sartre: **ما الأدب؟** Qu'est - ce que la littérature في مواقف situations، ج 2، الطبعة الحادية والعشرون ص 106 غاليار، باريس 1951.

(4) المصدر السابق ص 107 - 109.

(5) المصدر السابق ص 112.

(6) اوجين ايونسكو Eugène Ionesco: **الكاتب ومسائله** L'auteur est ses problèmes في كتابه: ملاحظات وردود على ملاحظات notes et contre - notes ص 24 - 25، غاليار، باريس 1966.

(7) جان پول سارتر: **تقديم الازمنة الحديثة** présentation des temps modernes، في **مواقف**، ج 2، ص 12 - 15.
(8) جان پول سارتر: **ما الأدب؟** ص 109 - 114.
(9) المصدر السابق ص 116.
(10) اوجين ايونسكو: **ملاحظات وردود على ملاحظات**؛ التمهيد ص 7.
(11) اوجين ايونسكو: **الكاتب ومسائله** ص 12 - 13.
(12) جان پول سارتر: **ما الأدب؟** ص 104 - 105.
(13) المصدر السابق ص 93 - 94.
(14) المصدر السابق ص 97.
(15) المصدر السابق ص 95.
(16) استعملنا كلمة افتخار العربية لترجمة كلمة paradoxe التي تترجم عادة بمفارقة. جاء في القاموس المحيط: افتحر القول، اتى به من قصد نفسه ولم يتابعه عليه احد.
(17) جان پول سارتر: **ما الأدب؟** ص 101 - 109.
(18) المصدر السابق ص 293.
(19) ايونسكو: **الكاتب ومسائله** ص 22.
(20) المصدر السابق ص 19 - 20.
(21) المصدر السابق ص 12.
(22) المصدر السابق ص 23.
(23) المصدر السابق ص 30 - 31.
(24) المصد السابق ص 40.
(25) **ما الأدب؟** ص 306.
(26) المصدر السابق ص 299.
(27) جان پول سارتر: **قومية الأدب** La nationalisation de la littérature، في مواقف ج 2، ص 51.
(28) د. برنال: **رسالة العلم الاجتماعية**، ص 1، دار الفكر العربي القاهرة 1949.
(29) المصدر المذكور ص 227.
(30) جان جاك سلمون: **العلم والسياسة** ص 115، وزارة الثقافة بدمشق 1976.
(31) ابراهيم حلمي عبدالرحمن: كلمة المعرب ص: ز في رسالة العلم الاجتماعية.
(32) رسالة العلم الاجتماعية ص 3 - 4.
(33) المصدر السابق 253 - 254.
(34) هـ.ج. ويلز: **العقل العلمي** ص 14؛ نقلاً عن رسالة العلم الاجتماعية ص 391.
(35) پول ڤاليري Paul Valéry: **مصيرنا والآداب** notre destin et les lettres، ص 232 - 233؛ في **نظرات إلى العالم المعاصر** Regards sur le monde actuel، غاليمار، باريس 1962.
(36) لويس لاڤيل: **الشعور بالذات** ص 66.
(37) المصدر السابق ص 88.
(38) پول ڤاليري: **مصيرنا والآداب** ص 229.
(39) جان پول سارتر: **ما الأدب؟** ص 119.
(40) اوردها د. برنال في **رسالة العلم الاجتماعية**.
(41) پول ڤاليري: **مصيرنا والآداب** 243 - 244.

(42) جان پول سارتر: **ما الأدب** ص 251.

(43) جان پول سارتر: **تقديم الازمنة الحديثة** ص 23.

(44) جان پول سارتر: **ما الأدب؟** ص 251.

(45) اوجين ايونسكو: **ملاحظات وردود على الملاحظات**، التمهيد ص 9.

(46) پول ڤاليري: **نظرة إلى الأدب الفرنسي** Coup d'œil sur les lettres françaises في نظرات إلى العالم المعاصر ص 312.